ليلة حب

بقلم : محمد السيد شوشة

كنا مجموعة من الصحاب ... شاعر وطبيب ورجل أعمال ودبلوماسى عربى .

كانت الليلة من ليالى شهر يوليو التى يحلو فيها السهر تحت سماء القاهرة الساحرة ، وكان مجلسنا فى شرفة فندق « سميراميس » التى خلت من روادها فى تلك الساعة المتأخرة من الليل .

ولم يكن اجتماعنا فى ذلك الوقت مجرد مصادفة ، بل كان اتفاقا ، فقد التقينا جميعا عند الفنانة الشرقية سهام التى كانت تنزل فى هذا الفندق لوداعها قبل سفرها الى وطنها فى الصباح ، وقد تركناها منذ قليل لتأوى الى فراشها ، حتى تستطيع اللحاق بأول طائرة تبرح القاهرة .

وفى الواقع اننا جميعا كنا مفتونين بحب هذه الفنانة العربية ، ذات الجمال الشرقى الغامض الذى لا يقاوم ، ولكن كل واحد منا ، كان يكتم عن الآخر حبه ، ويدارى عنه هواه ، ويسمى ذلك الحب مجرد ألفة أو صداقة أو اعجاب ، لا أقل ولا أكثر ، فكان اذا جاء ذكرها فى حديث عارض ـ وكثيرا ما كنا نتحاشاه ، تاركين ذكره فى القلوب ـ تفضح كل محب « عيونه » ويحاول التهرب منه .

ولذلك اخترنا شرفة سميراميس لمجلسنا فى تلك الليلة ، لكى نحرس ذلك الملاك النائم ، ونستنشق ذلك العبير الذى يحمله الينا النسيم من ريح الحبيب .

كان خدم الفندق منهمكين فى جمع المقاعد ، وتنظيف البلاط ، فى صخب كان يغطى على أصواتنا، ونحن متمسكون بمقاعدنا لانريد مغادرتها حتى لاتفوتنا متعة تلك الجلسة الشاعرية .

ما أحلى الليل وأروعه فى شرفة سميراميس ، وقد انتهى الخدم من عملهم، وهدأت الحركة ، وسكن الكون ، ولم تعد تسمع سوى همس الليل ممتزجا بأصوات القوارب الصغيرة الحالمة التى تسبح على صفحة النيل مع ضوء القمر، تروى أروع قصص الحب وترانيم الهوى والغرام .

وكان حديث الهوى والقلوب ..

تكلمنا فى مختلف الشئون والفنون ... ولكننا جميعا ، كنا نلتقى فى

الحديث عن شيء واحد ، وهو الحب ، حيث أخذ كل منا يروى قصة تجعل منه بطلا وفارسا مغوارا ·

واتسع الخيال أمام صديقنا الشاعر، فروى لنا هـــذه المغامرة التى اختـار مسرحها فى باريس ، وبدأ حديثه عنها بالاشمئزاز من بائعات الهـوى اللواتى يعرضن جمالهن هناك بكل سهولة ، لكن قادر على دفع الثمن ·· ولم تكن تنقصه القدرة على الدفع ·· ولكنه مالبث أن زهد فى هـــذا الجمال الرخيص الذى يباع برخص التراب ·

ولذلك حرص فى زيارته الاخيرة على الهرب من هذا الصنف من النساء ، الى أن التقى فى سهرة عائلية بفتاة ذات جمال نادر أسره جمالها ، بعد أن قرأ فى عينيها قصة حب ، فخفق قلبه بحبها، ولكنه تحسس جيبه ، فوجده فارغا الا من بقية قليلة من الفرنكات التى تسمح له بتمضية ستة أيام ، يعود بعدها الى أرض الوطن ·· ولذلك قطع الامل فى أن يحظى منها بموعد لقاء فى هـــذه الرحلة ·

وقال الشـــاعر : ·· لـــكن صاحبة الحفل ، قامت بمهمة التعريف بيننا ، التى زادت كلا منا تعلقا بالآخر ، فقد كانت مثلى شاعرة ·

وعزفت الموسيقى ، فاردت أن أحييها برقصة ، جمعت بين روحينا على أنغام موسيقى التانجو الحالمة ، ورحت أروى لها شعرى ، وهى تروى لى شعرها ، الذى حملنى على أجنحة الخيال ، فقد كانت قصيدتها تعبيرا رقيقا عن مشاعر الانثى المتعطشة للحب بعنوان « الضوء الخافت » ·

وانتهت السهرة ، ووضعت يدى فى يدها مودعا ، متعللا بالســفر ، وأنا أتحسس جيبى الخاوى ، واذا بها تتعلق بى ، وفى نظراتها نداء صارخ ، وترجونى البقاء بضعة أيام أمضيها فى ضيافتها فى بيتها الريفى الذى تقيم فيه بمفردها فى احدى الضواحى، فوجدت نفسى أمام فرصة ذهبية ، لم أشأ أن تضيع منى ·

وصاح الجميع بصوت واحد :

ـ وماذا فعلت ؟

فمضى يقول وهو ســعيد بأنه أثار حماسنا ، الى متابعة قصته :

ـ لم تتركنى فى تلك الليلة ، وأصرت على أن تذهب معى الى الفندق بسيارتها الحمراء الصغيرة ، لتحمل حقائبى الى بيتها الريفى ·

وكانت مغامرة ، لم تكن تخطر لى على بال ·· فقد عشت معها أيامى الســتة الباقية فى باريس ·· وقبل أن يبزغ فجر اليوم السابع جمعت حقائبى وهى نائمة دون أن تشعر بى لألحق بالطائرة، لكى أهرب من موقف الوداع الاليم ·

ثم كانت هذه الايام الستة عنوان ديوان شعرها الأول ، الذى بعثت به الى ، فقد كان يحلل اسم : « ستة أيام فى الجنة » ·

***

أما الطبيب فروى تلك القصة التى زعم انها وقعت له فى مستهل حياته العملية ، فقال :

كنت فى ذاك العهد ، متمسكا بشرف المهنة ، وواجب الطبيب الذى لا يقل قداسة عن واجب الكاهن أو القديس · وقد حدث وقتئذ ان استدعيت فى ساعة متأخرة من الليل لزيارة مفاجئة فى بيت أحد مرضاى ، فارتديت ثيابى على عجل،

وأسرعت لعيادة هذا المريض ، فاذا بى أجد المنزل خاليا من كل انسان فيما عدا زوجته ، التى كانت تذكرنى بزوجة قيصر التى كانت سمعتها فوق مستوى الشبهات ٠

كانت ترتدى قميصا حريريا شفافا، وتفوح من جسدها رائحة العطور ، وعندما رأتنى اصطنعت المرض، واستلقت فى فراشها الوثير فى فتنة واغراء ، وأخذت تصرخ من الآلام والأوجاع ، وتزعم لى ، بأنها تشعر باختناق شديد، ولا تستطيع التنفس ، ولكننى وجدت بعد الكشف الدقيق ، انها ليست مصابة بشىء ، ولما صارحتها بذلك ، رأيت فى عينيها أشياء لا يعرفها الا الشيطان ، فما كان منى الا أن حملت حقيبتى وقلت لها ، وأنا أهم بالانصراف:

ـ حرام عليك يا سيدتى ٠٠ اننى لا أزال فى مستهل حياتى العملية ، ابحثى لك عن طبيب آخر !

وحاولنا أن نصدق هذه الحادثة ، ونحن ما زلنا فى حيرة من صدق مغامرة صديقنا الشاعر ٠٠ ثم أرهفنا السمع للمغامرة التالية لرجل الاعمال ٠

كان رجلا ناجحا فى حياته العملية ، يتمتع بمكانة مرموقة فى المجتمع ، لكنه كان فى قرارة نفسه يشعر بأنه فاشل فى حياته العاطفية ؛ لانه لم يكن مقبولا شكلا أو موضوعا ، وبالرغم من ذلك كله ، راح يروى هذه القصة ، فقال :

حدث ذلك ، فى أثناء الحرب العالمية الماضية ، فقد التقيت بفتاة انجليزية حسناء ، كانت قد جاءت الى مصر لتلحق بحبيبها الذى كان يحارب فى صفوف الحلفاء ، ولكنها لم تعثر عليه ، فعاشت فى القاهرة غريبة وحيدة ، حتى التقت بى ، فنسيت ذلك الحبيب الذى جاءت من أجله ، وأصبحت لا تستطيع أن تعيش يوما واحدا بدون أن تراني ، حتى وصل ذلك الحب الى الذروة ، وكاد ينتهى الى زواج ، ولكننى لم ألبث أن تنحيت عن طريقها لاننى أحسست بأنى لن أستطيع أن أسعد هذه الفتاة الجميلة المتعطشة للحب ، لانها كانت تصغرنى بعشرين عاما ٠٠ ثم مضيت بعيدا عنها ، وفى قلبى حسرة !

***

وانتهى الجميع من ثرثرتهم فى جو تلك الليلة العاطرة بالحب ، فيما عدا الرابع الذى لم ينبس خلال السهرة ببنت شفة ، فقد كان يجلس شارد الفكر عنا ، لا تتحول عيناه عن نافذة الغرفة ، التى كانت ترقد فيها سهام ٠

كان هذا الصديق ، هو الدبلوماسى العربى الذى لزم الصمت ، لكننا أخذنا نثيره للكلام ، حتى خرج عن صمته ، وروى لنا تلك المغامرة ، فقال :

كنت وقتذاك طالبا ثانويا فى احدى مدارس بيروت ، وكانت شقيقتى طالبة باحدى مدارس الراهبات ، فذهبت يوما لزيارتها ، واذا بى ألتقى ببطلة هذه القصة :

كانت كاترين زميلة لشقيقتى فى الدراسة ، لم تتجاوز ربيعها السابع عشر ، فتآلفت روحانا مع النظرة الاولى٠

ومنذ ذلك اليوم ، ظللنا نتقابل خلسة ، حتى ذاع أمر حبنا ، وأدى ذلك الى فصل كيتى لانها أمضت ليلة بعيدا عن المدرسة ٠ وهنا قمت بدور الفتى الشجاع ، وعرضت عليها الزواج ،

وعاهدتها على الوفاء بهذا العهد ، حيث أقدمها الى أسرتى فى اليوم التالى ·

وفى الواقع انى كنت جادا فى هذه الفكرة وفاتحت الاسرة بكل جرأة وشجاعة ، فى أمر الزواج ، فاذا بها تسفه قولى ، وتمنعنى من التفكير فى هذا الامر ، حتى أتم دراستى العالية ، وأستطيع الاعتماد على نفسى فى الحياة ·

كان هذا المنطق المعقول ، ولكنى رفضته بكل شدة لأنى وجدت فيه قرارا جائرا على حبنا ، وعزمت على الذهاب اليها فى الموعد المحدد ، لنتزوج فى الخفاء ، وليكن بعد ذلك مايكون ·

وسرت فى طريقى اليها ، شارد الفكر، أحلم بالايام السعيدة التى سأعيشها مع كيتى ، وأسائل نفسى كيف أسعدها عندما تحل على لعنة الاسرة بسبب هذا الزواج ·

وبينما كنت أسير على هذه الحال ، صدمتنى سيارة ، صدمة شديدة ، ولم أفق لنفسى ، الا بعد أيام ، لأجدنى طريح الفراش فى أحد المستشفيات ، ولم أبرح مكانى الا بعد ثلاثة أسابيع ·

كان أول شىء قمت به بعد مغادرة المستشفى ، هو البحث عن كيتى ··· فتشت عنها فى كل مكان ·· ولكنى لم أعثر لها على أثر ·

ومرت الايام ·· وسافرت الى باريس لاتمام دراستى ، وصورة كاترين لم تبرح خيالى ، لان حبها ، كان قد ترك فى قلبى جرحا عميقا لم يندمل ·

وذات ليلة ذهبت مع بعض الصحاب لتمضية سهرتنا فى أحد ملاهى حى « البيجال » الصاخب وبينما كنا نلهو بمشاهدة البرنامج ، ظهرت راقصة لم نعرها أى اهتمام ، أخذت ترقص رقصة غجرية ، وهى توقع على الدف فى توقيعات عنيفة مع دقات الاقدام ، كأنها تروى قصة حب من نار ·

وبعد ان انتهت من رقصتها دارت على الجالسين بالدف ، تجمع « النقوط » حتى وصلت الى مائدتنا ، ونحن فى شغل عنها بصديقة كانت تجلس معنا ، فأخرجت من جيبى قطعة من ذات الفرنك ، وألقيت بها فى الدف ، بغير اهتمام ·

وفى هذه اللحظة فقط، تلاقت نظرتانا ووقف كل منا جامدا فى مكانه أمام الآخر ، فان هذه الراقصة الغجرية اللعوب ، لم تكن سوى تلك الفتاة البريئة الطاهرة التى أحببتها ذات يوم، وكانت ستصبح زوجتى ·

ثم أرسل تنهيدة حارة من قلب جريح، وحول بصره نحو نافذة الغرفة ، التى تضم سهام ، وقال : نعم · لم تكن سوى كاترين ·

وهنا أدركنا من تكون كاترين ، فان سهام كان لها اسم آخر غير هذا الاسم الفنى، الذى اشتهرت به، ولكن أنظارنا لم تتحول عنه ، فقد كان هناك سؤال حائر·· يحتاج الى جواب: كيف اختفت كاترين فجأة بعد موعد اللقاء الذى تخلف عنه بسبب الحادث الذى وقع له فى نفس اليوم ؟ فعاد ذلك العاشق الصامت الذى مازال يعيش على ذكرى حب قديم ، وقال :

لقد استسلمت لأول شاب آخر ، قابلها بعد أن تخلفت عن لقائها فى هذا اليوم ، الذى كانت ستصبح فيه عروسا ، وهربت معه الى باريس لتنتقم منى ، بعد أن خيل لها الوهم ، اننى حبيب غادر !